مقدمة

الفخر من أدل فنون الأدب على فطرة الإنسان ، فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها ، والتعبير عن الأثرة أشد النزعات فيها . والإنسان ، كما لا يخفى ، سجين ذاته منذ الولادة ، يديم النظر فى مرآتها ، مستجلياً محاسنها ، صابغاً قبائحها بما يجعلها فى ميزانه دون قبائح الناس أجمعين ، مقارناً فيما بينها وبين غيرها ، وهذا الإيثار للنفس ، إذا تجسم فى عبارات شعرية ، كان الفخر وكان الحماسة .

والفخر هو تعداد الصفات وتحسين السيئات ، وهو رفيق الآداب كلها منذ كان للشعوب آداب ، وهو عند العرب باب واسع من أبواب شعرهم ، يعبر عن ميلهم الطبيعى إلى الأنفة والعزة ، كما يعبر عن انتفاخة أعصابهم تحت تأثير العوامل الجوية والطبيعية ، وانطلاقها النباض وراء الآمال والذرى .

والذات فى الفخر ذات وتمددات للذات ، من خلال خَلقية وخُلقية ، ومن أصل ونسب ، وحزب ومذهب ، وأعمال وأقوال ، ومواقف كرامات وبطولات ، وما إلى ذلك مما لا نهاية له . والفخر من ثم أنواع : فخر ذاتى ، وفخر حزبى سياسى ، وفخر دينى ، وفخر حربى .

أما الفخر الذاتى فهو ما دار حول العقل والقلب واللسان والساعد ، وما دار

حول القبيلة والآباء والأجداد . وأما الفخر الحزبى فهو لسان الحزب ينطق بحقوقه وطموحه ، وينشر تعاليمه وآراءه ، ويهدف إلى الامتداد والاستيلاء ، وقد ازدهر منذ فجر الإسلام وعلا نجمه فى العهد الأموى ، وذلك لقيام الأحزاب المتناحرة من أمويين وعلويين وزبيريين وخوارج وغيرهم ممن سيأتى الكلام عنهم فى محله . وأما الفخر الدينى فقد ظهر خصوصاً مع الإسلام ورافقه فى فتوحه وانتشاره ؛ وأما الفخر الحزبى فهو شعر الحماسة ، والحماسة نشأت مع العربى منذ كان ، ومنذ ارتمى فى أحضان طبيعة قاسية جعلته غرضاً لأحداث الزمان ، ونكبات الحدثان ؛ وقد فطر العربى لذلك على الشجاعة والقتال ، وأصبح القتال جزءاً من حياته الطبيعية ، وطالما نشبت الحروب عند العرب ، وشبت الثورات الدامية ، فمن حرب الأوس والخزرج ، إلى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، إلى حرب البسوس بين بكر وتغلب ، إلى حروب اليمن وعدنان ، إلى حروب الفتوح التى امتدت ميادينها من حدود الصين إلى بحر الظلمات ، إلى قلب أوربة ، إلى الحروب المختلفة التى رافقت العرب فى ميادين عملهم ، والتى فجرت القرائح ، فتدفقت بسيل ملحمى مختلف زاخر بالبطولة والعزة .

ولما كان الفخر والحماسة من نتاج العاطفة الشديدة ، والانفعال العميق ، فقد حفلا بالمغالاة ، وانطلق فيهما الخيال مضخماً مهولاً ، وبرزت فيهما الحقائق التاريخية مجلببة بجلباب العاطفة والخيال ، واشتدت فيهما الأساليب الكلامية والألفاظ والحروف اشتداداً هداراً ، يرافق انفجارات النفوس واصطخابات القلوب ، كما يرافق فى مجالات القتال صهيل الخيول ، وقعقعات الأسلحة ، وجلبات المنون .

وإننا سنلزم فى دراستنا هذه جانب الإيجاز ، مقتصرين على الخطوط الكبرى ، مبينين المعالم والأطوار ، لا يهمنا من الأدباء إلا من مثل طوراً ، ومن الأحداث إلا ما كان عاملاً قويًّا من عوامل التطور ، ومن الميزات الأدبية إلا ما كان بارزاً شديد البروز .

والله ولى التوفيق .

حنا الفاخورى

obeikandl.com